المنحى الإنساني في النقد النسائي القديم

"سكينة بنت الحسين" أنموذجا

أ.د. محمد حامد شريف

الأستاذ بجامعة أم القرى

والعميد السابق لكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

تقديـــــم

الحمد الله تتنسَّم أرجَها النفوس الصافية ، وتترسَّـــم خطاها الأرواح السامية ، وأصلي وأسلم على منبع البيان المؤدب بالقرآن سيدنا محمد بن عبد الله ، حامل أعلام البلاغة ، ورافع ألوية الفصاحة مشذِّب شجرةَ الأدب ومهذِّب لغة العرب ، وعلى آله وصحبه الذين ارتشَـــفوا من رضابه واشتفوا من آدابه ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وبعـــــــد :فهذه محالة جادة لإثبات دور المرأة العربية في الشعر ونقده متخذا من ىسكينة بنت الحسين أنموذجا حيث تجاهلها بعض الباحثين كما سيأتي.

حقاً لقد فرضت المرأة العربية وجودا مميزاً منذ العصر الجاهلي، حيث ذكرت المصادر أن امرأ القيس ابن حجر وعلقمة بن عبدة تنازعا أيهما أشعر؟ فقال كل منهما لصاحبه أنا أشعر منك ، فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكما بيني وبينك فحكـــّماها ، فطلبت إليهما أن يصف كل منهما فرسه على قافية واحدة ورويّ واحد ، فقال امرؤ القيس :

خليليَّ مرَا بي على أم جندب .. نقضِّي لباناتِ الفؤاد المعذَّب

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب .. ولم يك حقا طول هذا التجنُّب

فلما انتهى كل منهما من إنشاد قصيدته قالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منك ! قال وكيف ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة .. وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك ومريته فأتعبته بساقك

وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه .... يمرٌّ كمرّ الرائح المتحلب

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه ، لم يضربه بسوط و لم يتعبه، فقال امرؤ القيس: ما هو بأشعر مني ولكنك له عاشقة ، ثم طلقها فخلف عليها علقمة ، فسمي لذلك "علقمة الفحل"[1].

وقد ألَّف جلال الدين السيوطي فى القرن التاسع الهجري كتاباً حول أدب المرأة بعنوان: "أنس الجلساء في أخبار الشواعر من النساء" عرض فيه لأربعين شاعرة من "الخنساء" حتى "حمدونه" وليس فيهن "سكينة بنت الحسين" (٤٧ هـ – ١١٧هـ) على حضورها الدائم فى تاريخنا الأدبي والنقدي.

ولعل عذر الإمام السيوطي أنه لم يُذكر لها من الشعر ما يجعلها شاعرة ! لكنني أميل إلى كونها شاعرة ـ من وجهة نظري ـ لسببين : الأول أنني " أكاد لا أرتاب في أن الرواة قد أسقطوا لها شعراً .. في غير الرثاء! وتلك شنشة [2] ، نعرفها من أخزم! إنهم

---

[1] راجع أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام عمر كحالة ج/١ ص/ ٢١٧ ط/ مؤسسة الرسالة بيروت عن الموشح للمرزباني.

[2] هكذا فى الأصل ، ولعل الصواب: شنشنة (راجع الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٤ / ٨٧ ط بيروت ١٩٦٥) و (نسب قريش ص ١١٨ ، ١٢٠) .

قصروا المجال الفني للمرأة على الرثاء ، وقلَّ أن اعترفوا بها شاعرة غير راثية ، فعلوا ذلك مع الخنساء ، وفعلوه مع ستين شاعرة أخرى من شواعر العرب .. وفعلوه مع " الرباب " بنت امرئ القيس أم سكينة ، قالوا : هي شاعرة ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات في رثاء زوجها وبيتين آخرين رثته بهما أيضاً حين سيقت مع ركب السبايا الهاشميات إلى قصر ابن زياد .. وما بمثل هذه الأبيات تعد " الرباب " شاعرة كما وصفوها" [٣] .

السبب الآخر هو : أن المتتبع نقداتها للشعراء يظهر له بوضوح موهبتها الشعرية حيث كانت تُغيّر لبعض فحول الشعراء " اللفظة " في شعره ، ولربما غيرت الشطر الشعري إلى ما هو أجود ، كما فعلت مع " نُصيب " وسنعرض له.

كما ألف الدكتور زكي مبارك كتاباً بعنوان : " حب ابن أبي ربيعة وشعره " وفيه عرض لسكينة " عرضاً لا يتفق ووقارها ولا مع حقيقتها الإنسانية والتاريخية ! ولو قصرت حديثي على تفنيد ما ذهب إليه د . زكي مبارك في " سكينة " لكفاني في هذا الصدد ،

---

[٣] سكينة بنت الحسين د . بنت الشاطئ ص ١٧٣ .

ولكني أراني لا آتي بجديد يُذكر بعدما قرأت للدكتورة عائشة عبد الرحمن ردها المقنع والممتع في كتابها "سكينة بنت الحسين".

ولقد لمستُ من وراء سطور بنت الشاطئ دافعين: الأول: عاطفتها وحبها لآل البيت ، ومرجع ذلك هو بيت أبيها ومنشؤها المعروف .

والدافع الآخر: هو غيرة العفيفة المسلمة على مثلها من ذوات جنسها ، إذ رأت في الذود عنها نوعاً من الجهاد والاحتساب

وأيًّا كان فقد رأيت أن أنبِّه إلى حق "سكينة " على الإمام السيوطي كما رأيت أن أضيف إلى ما ذهبَت إليه بنت الشاطئ جانباً آخر يكمل هدفها ــ ألا وهو : المنحى الإنساني عند "سكينة "[٤] ، وهو الهدف من وراء هذا البحث.

---

[٤] هى أمينة أو آمنة بنت الحسين بن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنهم ــ لقبت بسكينة ، وهى من شريفات نساء عصرها ، قرشية هاشمية ، وهى من الأديبات العربيات المعدودات، وأمها : " الرباب " بنت امرئ القيس الكلبى ، وقد عرفت سكينة فى عصرها بالثقافة الواسعة والجمال الباهر ، فضلاً عن مكانتها الاجتماعية ، لهذا تهافت عليها الخاطبون! ولكن المرجح عندى أنها تزوجت من ابن عمها عبد الله بن الحسن بن على وهو أبوعذرتها ، ثم من مصعب بن الزبير وكان مهرها من مصعب خمسمائة ألف درهم وأجهزها بمثله .. وقد شهدت مع مصعب حرب عبد الملك بن مروان ، فدخل عليها مصعب يوم قتل .. فأخذ سيفه

-٢-

لقد توافر المنحى الإنساني عند سكينة إذ كان صدىً لعوامل كثيرة أهمها : نشأتها الدينية ، ومكانتها الاجتماعية بين أهلها وعصرها ، ثم ما وقع فيه أهلها من صراع دموى على مرأى ومسمع منها : لقد وقفت سكينة منذ الطفولة ترقب أباها وهو في دوامة المصرع الدرامي الذي كان بينه وبين بني أمية ، تلك المعركة التي بدأت مرحلتها الأولى بين "أبي سفيان بن حرب" ، والنبي محمد ﷺ ثم انتقلت إلى "معاوية بن أبي سفيان" و"الإمام علي" صهر

فعلمت أنه لا يريد أن يرجع فصاحت من خلفه واحزناه عليك يا مصعب ، فالتفت اليها ــ وقد كانت تخفى حبها له ــ فقال: أكل هذا لي فى قلبك ؟ فقالت: إى والله وما كنت أخفى أكثر فقال : لو كنت أعلم أن هذا كله لى عندك لكانت لى ولك حال ! ثم خرج ولم يرجع. فلما قُتل خطبها " عبد الملك بن مروان " فرفضت بشدة قائلة : والله لا يتزوجنى بعده قاتله أبداً .. وقد توفيت ــ رضى الله عنها ــ بالمدينة لخمس خلون من ربيع الأول سنة ١١٧ هــ . (راجع العقد الفريد جــ ٤ / ٤٠٧ ، وفيات الأعيان جــ ٢ / ٢١٤ وما بعده ، وأعلام النساء لعمر كحاله جــ ٢ / ٢١٧ ، وعيون الأخبار م ١ جــ ٢ / ٢١٨ ، والأغانى جــ ١٤ / ١٦٣ ، ١٦٨ ــ ١٧٠ ، والأنباء فى تاريخ الحلفاء لابن العمرانى ص ٥٥) وقد آثرت ذكر هذه المراجع كلها لأن بها إشارات تؤكد زواجها من مصعب ، وهو دليل ترجيحى المذكور للزواج منه .

النبي ﷺ وابن عمه ، وها هي ذي تنتقل إلى "يزيد بن معاوية" ، حفيد " أبي سفيان وزوجته هند" و "الحسين بن علي" حفيد النبي

عبد شمـــس أضـــرمت لبنـــي هـــا ... شم حرباً يشـــيب منها الوليـــــــد

فابن حرب "للمصـــطـــفى "وابن "هنـــد" . . " لعـــليّ "و "للحســـين" " يزيـــد"

وما كان "الحسين" طامعاً في أمر من أمور الدنيا ... ولكن إذا انتهى الأمر إلى أن يصير " يزيد " أميراً للمؤمنين فلن يبالي " الحسين " على أي جنب كان في الله مصرعه ؛ ليدفع هذا الباطل بقلبه وبلسانه ثم بسيفه إذا لم يكن من القتال بد!

وفي عام ٦٠ هـ اضطر الحسين ـــ أمام إصرار والى المدينة على حسم الموقف ـــ لأن يهاجر بأهله إلى مكة ، وقد دخلها ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان وفي السنة نفسها توجه إلى الكوفة بدعوة من أهل العراق له وكانوا قد بايعوه بالخلافة سنة ٥٩ هـ.

ونعود إلى"سكينة" وقد طافت بأنحاء مكة ، وأتيح لها أن ترقب النشاط الأدبي ، حيث كان عدد من شباب الأنصار وفتية قريش قد

عمرت بهم أندية الشعر ومجالس الطرب والغناء ، وازدهرت في تلك البيئة "الأرستقراطية" مدرسة خاصة بالغزل ! [٥]

****

وقد عُرفت "سكينة" منذ طفولتها بالمرح والبشاشة فكانت مبعث الأنس لأهلها ولأبيها بوجه خاص ، فقد كان الحسين ﷺ يسكن إليها وإلى أمها " الرباب " بنت امرئ القيس كلما ألمت به الظروف العصيبة التي مرت به ! وفي " سكينة " و"أمها " يقول الإمام الحسين ﷺ مجيباً أخاه الحسن حين عاتبه على اهتمامه المفرط بهما :

لعمـــرك إننـــي لأحبُّ داراً تحـــلُّ بهـــا ســـكينة والربـــابُ

أحـــبهم وأبذل جُـــلَّ مـــالي وليس لعاتبٍ عنـــدي عتـــابُ

فلست لهم وإن غابوا مضيعاً حيـــاتي أو يفنيـــني التراب [٦]

فسكينة طالما كانت تؤنس أباها بكلماتها الرقيقة المهدئة وابتسامتها المشرقة كلما ثقلت عليه الهموم ، بل عرفت بالدعابة

---

[٥] راجع تاريخ الطبرى جـ / ٢٨٦ والأنباء فى تاريخ الخلفاء ص ٥٣ وسكينة بنت الحسين ص ٣٢ – ٣٥

[٦] مقاتل الطالبيين ص ١٠ والأغاني جـ ١٤ / ١٦٣ - ١٦٤ والمعارف لابن قتيبة ص ٩٣ ونسب قريش ص٥٩

والمرح تلوذ بهما لتبدد الغيوم التي كانت تخيم على آل البيت منذ مصرع جدها الإمام علي ـــ كرم الله وجهه ـــ وما تلاه من أحداث أليمة ظلت تتوالى حتى عصفت بأبيها شهيداً في مذبحة كربلاء ومعه اثنان وسبعون من إخوته وبنيه من بني أخيه وأبناء عمومته وأصحابه [٧] .

-٣-

ويتبلور هذا المنحى الإنساني عند "سكينة " بعد مذبحة كربلاء حين ترى رأس أبيها يطاف به في أحياء الكوفة على مرأى من السبايا الثواكل ، ولسان حالها يتساءل : أين الأشياع والأنصار؟ أين الألوف الذين ألحُّوا في دعوة أبيها إلى الكوفة ليناضلوا معه في سبيل الحق!

لهذا تدفعها العاطفة الإنسانية ـــــ عاطفة الأبوة ـــــ لأن تقف في ركب السبايا ناقمة، تشجب ما حدث ، وهي تقول :

لا تعذليه فهم قاطعٌ طرقَه ... فعينــُه بدموع ذرف غــدِقــه

---

[٧] راجع تاريخ الطبرى جـ ٢٦١/٦ ، وقد ذكرت د. بنت الشاطئ أن عدد القتلى (ثمانية وسبعون) وأشارت فى المرجع إلى تاريخ الطبرى جـ ٦/ ٢٦١ وفى المرجع نفسه عدد القتلى (اثنان وسبعون) ! ولعل هذا الخطأ راجع إلى المطبعة .

إن الحسين غداة الــطف يرشقه ...ريب المنون فما أن يخطئ الحدقه

بكف شر عباد الله كلــّهم ... نســل البغايا ، وجيش المُرَّق الفسقه

يا أمة السوء هاتوا ما احتجاجكم غداً ، وجُلُّكم بالسيف قد صفقه

الويل حــلَّ بكــم إلا بمــن لحقــه ... صيّــَرتمــوه لأرمــاح العــدى درقه

كما يدفعها الحنين لأن تأمر عينيها بقولها :

يا عينُ فاحتفلي طول الحياة دماً... لا تبك وُلــداً ولا أهــلاً ولا رُفقه

لكن علي ابن رسول الله فانسكبي... قيحاً ودمــاً، وفــي أثرَيهمــا العلقه (٨)

وهي لم ترثِ أحداً بعد أبيها إلا زوجها " مصعب بن الزبير " وهي لم تبكِ فيه إلا خصاله الإنسانية :

---

(٨) أمالي الزجاجي ص ١٦٨ وسكينة بنت الحسين د. بنت الشاطئ وعندها البيت الرابع هكذا : أأمة السوء هاتوا مــا احتجاجكم ...إلخ والشطر الثاني من البيت السابع (الأخير) هكذا: دماً وقيحاً...

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي يرى الموت إلا بالسيوف حراماً

وقبلك ما خاض " الحسين " منيةً ...إلى القوم حتى أوردوه حِماما

(٩)

إن الإنسانية لتدفعها إلى أن تسطر في أدبها رثاءً لزوجها الشجاع الذي "يرى الموت إلا بالسيوف حراماً "وهو فوق ذلك ورع ، تقى. شهد له بذلك كله بعد قتله ـــ عدوه الألد " عبد الملك بن مروان "حين (قال يوماً لجلسائه : من أشدُّ الناس قالوا : أمير المؤمنين ، قال : اسلكوا غير هذا الطريق .. قالوا فمن ؟ قال : " مصعب " كان عنده عقيلتا قريش " سكينة بنت الحسين " و " عائشة بنت طلحة " ثم قال : " لو علم أن الماء ينقص مروءته ما ذاقه " [١٠] والفضل ما شهدت به الأعداء !.

-٤-

---

[٩] سكينة بنت الحسين وأمالى الزجاج ص ١٠٩.

[١٠] الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٤ ط/ بيروت ص / ٢٣٣.

على أن التاريخ الأدبي وإن أغفلها شاعرة ، فهو قد حفظ لها نقدات هي أثقب من نقدات اللغويين والنحاة ؛ ومرجع ذلك إلى علو كعبها في فن القول وإنسانيتها المرهفة تجاه الكلمة وصداها في المشاعر الإنسانية ، وإن ما رواه المؤرخون ليؤكد أن الشعراء وغيرهم قد ألقوا إليها مقاليد الحكم الأدبي دون اعتراض !

فقد روى الأصبهاني عن الحسن بن علي من طريق رواية محمد بن سلام تؤازرها رواية عمر بن شبه ... قال هؤلاء : اجتمع في ضيافة [١١] "سكينة" جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب ، فمكثوا أياماً ثم أذنت لهم ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم ثم أخرجت وصيفة لها ، قد روت الأشعار والأحاديث فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال لها : هأنذا ، فقالت : أنت القائل [١٢]

همـــا دلـــّتـــاني مـــن ثمانينَ قامة كما انحط باز أنتم الريش كاسره

---

[١١] راجع الأغانى جـ ١٤ / ١٧٣ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام لعمر كحالة جـ ٢ / ٢٠٤ ، وتراجم النساء لابن عساكر تحقيق سكينة الشهابى ص ١٦٢ ، ١٦٦ .

[١٢] ديوان الفرزدق جـ ١ / ٢١٢ ط / دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

فلمّا استوت رجلاي في الأرضِ قالتا أحيٌّ يرجَّى أمْ قتيلٌ نحـــــاذره

فقلت ارفعوا الأمراسَ لا يشعروا بنا وأقبلت في أعجـــازِ ليلٍ أبادره

فأصبحت في القوم القعود وأصبحت [١٣] مغلقة دوني عليها دساكره !

قال: نعم أنا القائل

قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرّها وسرّك ؟ هلا سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك .

****

وليس يفوتنا ما في نقد السيدة الجليلة من هدف إنساني يتفق وتعاليم الإسلام ، إنها دعوة كريمة إلى ترك الفحش وعدم المجاهرة بما يخدش حياء الأنثى ، بل عدم المجاهرة بكل ما يقترفه العبد من أخطاء قد سترها الله عليه ، وفي حديث عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل أمتي معافى إلا المجاهرون. وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه) متفق عليه [١٤]

---

[١٣] المراد بالقوم القعود : النساء وفى الديوان / القوم الجلوس .

[١٤] رياض الصالحين للإمام النووى ص ١٠٧ باب ستر عورات المسلمين .

ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت برسالتها فقالت: أيكم جرير ؟

قال: هأنذا . قالت: أنت القائل [١٥]

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ القلُوبِ وَلَيس ذا وَقْتَ الزّيَارَةِ، فارْجِعي بسَلامِ

تجري السواكَ على أغرَّ كأنهُ بردٌ تحدرَ منْ متونِ غمامِ

لوْ كانَ عهدكِ كالذي حدثتنا لَوَصَلْتِ ذاكَ فكَانَ غَيرَ رِمَامِ

إنّي أُوَاصِلُ مَنْ أرَدْتُ وِصَـالَهُ بِحِـبَالِ لا صَلِفٍ وَلا لَـوّامِ

قال : نعم

قالت: هلا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ ... أنت عفيف وفيك ضعف. خذ هذه الألف والحق بأهلك [١٦] .

وما كان للشاعر أن يلحق بأهله إلا وقد اقتنع بأسرار نقدها : "أنت عفيف وفيك ضعف"فهذا أشف تنويه إلى جمال العفة مقرونة بالقوة وليس بالضعف. أما قولها : "هلا أخذت بيدها وقلت لها ما

---

[١٥] ديوان جرير جـ ١ / ٥٥٦

[١٦] الأغانى جـ ١١ / ١٧٣ وأعلام النساء جـ ٢ / ٢٠٤ ـ ٢٠٥ والموشح ص ٢٥٢ .

يقال لمثلها " فإنه قد اشتمل دخائل ذلك العصر الذي كان الخضوع فيه للحبيبة غاية الرجولة كما كان العشق فيه شيئاً عاماً تساوى فيه رجل الدين ورجل السياسة إلى جانب الشعراء !

فرجل الدين: كعبد الله بن عباس كان يصغي إلى إمام الغزليين "عمر بن أبي ربيعة" في مجلس فتواه ويروي شعره [١٧] وكان عبيد الله بن عبد الله بن مسعود وعروة بن أذينه وعبد الرحمن القس وسعيد بن المسيب من الفقهاء الظرفاء الذين لهم في شعر الغزل باع طويل[١٨].

وأما رجل السياسة: فهو كعبد الملك بن مروان حين وفدت عليه"بثينة "معشوقة "جميل" فسألها: ما الذي أعجب جميلاً منك حتى أرجَّ بكِ الأخبار ؟ وما الذي رجاه منك ؟ قالت: "الذي رجت منك الأمة حين ولـــــَّتك" !! [١٩]

وكأني بها تقول: لقد رآني بعينيه ولم يرني بعينيك! وهذا الموقف ينطوي على شيئين : الأول : موقف أعلى رأس في العصر

---

[١٧] الكامل للمبرد جـ ٣ / ١٦٨.

[١٨] راجع فى هذا الصدد مجلة الرسالة عدد ٦٦٥ فى ١٣٦٥/٤/٢٨ هـ ـ ١٩٤٦/١/١ م ص ٣٥٠ م وما بعدها بقلم الشيخ (على الطنطاوى).

[١٩] راجع الإمتاع والمؤانسة ج٢/ ١٦٨

إذ رأى انتشار الشعر الغزلي وقد عطر الأسمار والأخبار ، فهو المستروَح الوحيد حينئذ.

والآخر : جواب "بثينة" لما فيه من حذق وتمييز بين نظرة العاشق الفنان، ونظرة عابر الطريق، فرؤية العاشق الفنان إنما تتجاوز المنظور إلى الشمائل والتخييل ، فيرى ما لا يراه الناظرون .

وهكذا يلتقي فقهاء تلك الأمة وحاكمها ... مع الشعراء تحت لواء الحب!

****

ونعود إلى مجلس "سكينة " وقد عرفنا طبيعة المجتمع الأموي حينئذ ـــ فما أنشدها شاعر غير شعر الغزل ـــ نعود لنستمع ثانيةً إلى قولها لجرير: "هلا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟

"فسكينة" قد اعتمدت في نقدها على الحس الاجتماعي ، وإن الإنسانية لتدفعها ـــــ فضلاً عن العفة ـــــ إلى وجوب المعاملة بالمثل ، ولا سيما في مجال العواطف.ـــ فلا تقابل العاطفة الصادقة بعاطفة تئدها !

-٦-

وعادت الجارية بعد أن دخلت إلى مولاتها فقالت : أيكم كثيّر ؟ قال : هأنذا ، قالت : أنت القائل : [٢٠]

---

[٢٠] ديوان كثير ص ٣٣ والمرشح للمرزبانى ص ٢٦٧.

وأعجـــبني يا عزُّ منك خلائق كرامٌ إذا عُـــدَّ الـــخلائق أربع

دنُوك حتى تذكري العاشق الهوى وبـــُعدك أسباب الهوى حين يطمع

وأنك لا يدري غريم مطلتـــــــه أيشتدَّ إن لاقاك أم يتضـــرع ؟

وأنكِ إن واصلتِ أعلمتِ بالذي لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع (٢١)

قال نعم . قالت : فسوءة لك. جعلتها ذا لونين تعطي من يستحق المنع ، وتمنع من يستحق الإحسان والعطية [٢٢]. وفي الموشح للمرزباني قالت : ما جعلتها بخيلة تعرف بالبخل ، ولا سخية تعرف بالسخاء [٢٣].

---

[٢١] تراجم النساء لابن عساكر ص ١٦٩ الأبيات مذكورة أيضاً بهذا المرجع ص ١٦٣ وفيها اختلاف بالبيت الثالث فهو هكذا : **لزمت لنا بالبخل منك طريقة فليتك ذو لونين يعطى ويمنع**

والبيت الرابع غير مذكور بـــ ص ١٦٢

وقد ذكر الأصبهانى ثلاثة أبيات وفيها اختلاف فى البيت الثانى والثالث وهما فى الأغانى هكذا :

دنوّك حتى يدفع الجاهل الصبـــا ودفعك أسباب المنى حين يطمع

فوالله ما يدرى كريم ممـــاطـــــل أينســـاك إذ باعدت أو يتصـــدَّعُ

وهى موافقة لما جاء فى ديوان الشاعر ص ٣٣.

[٢٢] ابن عساكر ص ١٦٢.

[٢٣] الموشح للمرزبانى ص ٢٦٧.

وفي تراجم النساء لابن عساكر قالت : " أغزلتَ وأحسنت" [٢٤]

وفي الأغاني : " ملحت وشكلت " [٢٥]

وأرى اختلاف الروايات في نقد "سكينة" لأبيات" كثيّر " إنما يرجع لتعدد الرواة والمؤرخين ، وهذه الكثرة المرويـــــةً تعني أن لنقد سكينة أصلاً يؤكد نسبته اليها.

وأيما كانت الرواية : فقد أُعجبَت سكينة بأبيات "كثيّر" في وصف صاحبته " لما لمحت فيها من دقة التعبير عن محبوبته عزةَ " الأنثى" وعن طبيعة حواء" [٢٦]

كما أُعجبت سكينة بشعر "كثيّر" لأنه وصف صاحبته بما توصف به المرأة التي تستديم الحب وتستبقي الود ، وتعرف كيف الحرص على الرجل ومن أين يستثار. تدنو ـــ كما قال ـــ تُريه من نفسها دَلالاً وألواناً من الفنون يخيل إليه معها أنها مستسلمة له ، فيتحفز للغواية ويتلمظ لاقتناصها ثم لا يقدر عليها ولا ينال منها ؛

---

[٢٤] ابن عساكر ص ١٦٩.

[٢٥] الأغانى ج ١٤ / ١٧٤.

[٢٦] بنت الشاطئ ص ١٧٨.

لأنها تكون قد ارتدت إلى نزاهة الحب وعفافه ، فتصده عنها ، وتدفعه وتؤنسه ، وتبدد مناه" [٢٧]

فالأبيات –إذن– تصوير للعلاقة الإنسانية الواقعية التي تكون بين المتحابين ، فالنساء: يتمنعن دائماً وهن الراغبات ! ولكن ماذا يكون إذا ما استبد الهوى ؟ هل تكون المحبوبة ذا لونين كما تمنى كثيّر ! "فليتك ذو لونين يعطي ويمنع" ، كلا ! بل يجب الوضوح والعفة ، لا التلون الذي يورث العقد النفسية أو يئد العاطفة في مهدها !

-٧-

ثم دخلت الجارية على مولاها وخرجت فقالت : أيكم نُصيب ؟ قال هأنذا [٢٨] فقالت أنت القائل:

ولولا أن يقال صَبا نصيب لقلت بنفسي النشا الصغار

بنفسي كل مهضوم حشاها إذا ظُلمت فليس لها انتصار

قال نعم. فقالت : ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً . خذ هذه الألف والحق بأهلك .

---

[٢٧] اتجاهات النقد الأدبى العربى ط/ القاهرة ص ١٦٥.

[٢٨] فى الأصل ها انا الأغانى جـ ١٤ /١٧٤.

وفي رواية اخرى قالت له : [٢٩] "أغزلت وأحسنت وكرُمت ، إلا أنك صبوت إلى الصغار وتركت الناهضات بأحمالها!"

ولا تخفى هذه اللفتة الإنسانية: "صبوت إلى الصغار وتركت الناهضات بأحمالها" فهي تلفت أنظار الرجال إلى الثمرة الناضجة التي أينعت وحان قطافها ، وإلا فسدت وربما أفسدت! إنها أولى بالقصد من ثمرة لم تنضج بعد ! وفي هذا ما لا يخفى من صيانةٍ للنفس الإنسانية من الانحراف! ،كما أعجبت "سكينة" بموقفه تجاه المرأة حين انتصر لها ، وعدَّها مظلومةً تحتاج إلى من يأخذ بيدها في الحياة

-٨-

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ، مولاتي تقرئك السلام ، وتقول لك : والله مازلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك : [٣٠]

لا لَيتَ شِـــعري هَل أَبيتَنَّ لَيلَةً ..بِوادي القِرى، إِنّي إِذَن لَسَعيدُ [٣١]

---

[٢٩] ابن عساكر ص ٦٨ – ٦٩ .

[٣٠] الأغانى جـــ ١٧٤/١٤ وقد اقتصر على ذكر البيتين : الأول والثانى ، كما اقتصر على قول سكينة : جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف والحق بأهلك " .

لِــكُلِّ حَديثٍ بَــينَهُنَّ بَــشــ.. وَكُلُّ قَــتيلٍ عِــندَهُنَّ شَــهيــدُ

يقــولون: جاهد يا جميل بغــزوة .. وأي جهاد غيرهـــــن أريد [٣٢]

وأفضل أيامي وأفضل مشهدي .. إذا هِيج بي يوماً وهـــــنّ قعود

فقال جميل : أنا قلته ، قالت : أغزلتَ وكُرمتَ وعففتَ . ادخل . يقول: فلما دخلتُ سلَّمت. فقالت لي"سكينة" : أنت الذي جعلت قتيلنا شهيداً ، وحديثنا بشاشة وأفضل أيامك يوم تنوبُ فيه عنا وتدافع ، ولم تــتَعدَّ ذلك إلى قبيح ! ؟ خذ هذه الألف درهم وابسط لنا العذر: أنت أشعرهم" !

****

ونلاحظ –بدايةً– أنها كرَّمت "جميلاً "بعدة أمور هي : الاشتياق لرؤيته ، والسلام عليه ، والدخول عليها ، وإعطاؤه الألف مع الاعتذار بقلة ذاتِ اليد حينئذ ، وأخيراً تفضيله على الشعراء "أنت أشعرهم" **وهو وسام شرف لا يعــدُله بين الشعراء وسام!**

---

[٣١] ديوان جميل بثينة ص ٣٩ ــ ٤١ والأبيات المذكورة قطوف من داليته الشهيرة.

[٣٢] ابن عساكر ص ١٦٩ ، وفيه زيادة البيات وتعليق " سكينة " كاملاً .

وبالطبع لن يأتي هذا التكريم مجاملة أو من فراغ ، فلقد ذكرت حيثيات حُكمها واضحة ، وهي فيها تنطلق من منظور إنساني كريم ، ذي شقّين :

الأول : أن الشاعر قد تأثر في فنه بروح الاسلام الذي أدرك المسلمين ـــ وهم بشر ـــ فوضع بين أيديهم ما يعوِّضهم عن المعاناة والصبر على الحب دون ارتكاب المعصية. فأرشد المسلم إلى أنه قد يرتقي بحبه إلى درجة الشهداء ! نعم. لقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ قوله: "من عشق وكتم وعفَّ وصبر فمات مات شهيداً "[٣٣] فاندفع المسلمون بهذا إلى العفة والعذرية ، ووجدوا ـــــــ في إسلامهم ـــــــ ما يُوفقون به بين الزهد ومطالب العاطفة ، وفيه من جهاد النفس ما لا يخفى!

الشق الآخر : هو الإشادة بخلق إنساني كريم يتمثل في شهامة العربي بالدفاع عن المرأة والذود عنها ، وهو خلق أقرّه الإسلام وجعل الموت في سبيلها استشهاداً أيضاً! ففي الحديث عن "سعيد بن زيد

---

[٣٣] هو حديث صحيح ومقبول عند فقهاء الظاهرية والحنابلة ، وقد ذكر ابن الجوزى لهذا الحديث فى مخطوطة رقم (١٢٩٦ بباريس) اثنى عشر إسنادا (راجع مصارع العشاق لابن السراج ج١/٧ ط ١ مصر) و (الحياة العاطفية د. غنيمى هلال ص ٣ ط القاهرة).

بن عمرو بن نفيل" ـــــــ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ـــــــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد"[٣٤]

فجميل إنما أحسن في نظر "سكينة" ؛ لأنه جعل الحب جهاداً ، يرجع عنه المحب المجاهد بالغنيمة أو بالشهادة . فالغنيمة : فيما يلقى من بشاشة الحديث ، وحلاوة المقال ، والشهادة : في النهاية الحتمية للضنى والسهد والعذاب ، والمحب يلتذ بكل أولئك ولا يحاول أن يصرفها عن نفسه ، وكلما أوغل فيها أوغل في ملذات الوجدان ، حتى يلقى مصرعه مطمئناً ، مستبشراً كاطمئنان الشهيد " [٣٥]

وهكذا مزج جميل بين (العقيدة والحب) وهو منحى إنساني لا يخفى !

****

---

[٣٤] رواه ابو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح رياض الصالحين ص ٤٣١ باب بيان جماعة من الشهداء.

[٣٥] اتجاهات النقد الأدبى العربى ، د . محمد السعدى فرهود ط/ القاهرة ص ١٦٥ – ١٦٦.

ولا يفوتنا إعطاؤها للشعراء ... والتفاوت في العطاء ! أما إعطاؤها: ففيه تشجيع لهذا الشعر المعبّر عن تلك العاطفة الإنسانية التي شاعت حينئذ ، فعمَّت طبقات المجتمع ، وغدت حديث كل بيت ! وسكينة بعطائها إنما تشجع على قول يهذّب تلك العاطفة ، وينشر الفضيلة في مجتمعها وكما قيل قديما : "إن اللُّها تفتح اللَّها " ! والرسول ﷺ إنما سمع الشعر وأعطي عليه وكان في مقدمته مثل هذه الأبيات التي سمعتها سكينة وأعطت عليها !

وأما التفاوت في عطائها ؛ ففيه تكريم لمن زادت عفته ، وسمت فكرته وكان صادق التعبير عن عاطفته .. وفي ذلك كله ما لا يخفى من بعد إنساني تبثه في نقدها وتقره بين شعراء عصرها.

****

وإذا كانت "سكينة" تحث على العفة في ممارسة الحب أو التعبير عنه ، فهي قد ألزمت نفسها بذلك وهي تخاطب الرجال من خلف ستار بواسطة جارية كانت تصافح عنها الضيوف وتدفع للشعراء الجوائز.

-٩-

وفي مجلس سكينيٍّ آخر رواه الأصبهاني عن ابن أبي الأزهر عن حماد عن أبي عبد الله الزبيري قال : اجتمع بالمدينة راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل ، وراوية نصيب وراوية الأحوص ، فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال : صاحبي أشعر. "فحكموا سكينة بنت الحسين بن علي ــ عليهما السلام ــ لما يعرفونه من عقلها وبصرها في الشعر فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها. فأذنت لهم. فذكروا لها الذي كان من أمرهم ..." قال إسحاق في خبره: فلم تثن على أحد منهم في ذلك اليوم و لم تقدمه إلا جميلاً" فإنه خالف هذه الرواية. فقالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول: [٣٦]

فيا ليتني أعمى أصمُّ تقودني .. بثينة لا يخفى عليّ كلامها

قال : نعم

قالت : " رحم الله صاحبك إن كان صادقاً ، وكان جميلاً كاسمه" [٣٧]

---

[٣٦] ديوان جميل ص ٦١ والموشح ص ٣٥١ ووفيات الأعيان جـ ٣/٢٧٠.

[٣٧] الأغانى جـ ١٤ / ١٧٤ ــ ١٧٥ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٧.

في رواية أخرى [٣٨] " قالت الجارية : تقول لك سيدتي: أرضيتَ من الدنيا وعيشها ونعيمها أن تكون أعمى أصم إلا أنه لا يخفى عليك كلام بثينة ؟! قال نعم : فدخلت فأخبرت مولاتها بما سمعت من لفظه ، فلم تلبث إلا يسيراً حتى خرجت الجارية ، معها كيس فيه ألفا درهم ومنديل فيه أصناف ، فقالت: تقول لك سيدتي: اقطع لك هذه الثياب ، وأنفق هذه الدراهم ، فاذا نفدت فائتنا فإن لك عندنا المواساة" .

وظاهر الروايتين : أنهما ليستا في مجلس واحد وأعتقد أنه المجلس المذكور آنفاً وأن سكينة قد راجعته في أكثر مـــــــــن قصيدة إعجاباً بشعره ، ولهذا عدّته أشعرهم وزادته في العطاء.

وعلى كل حال : فقد أدركت الناقدة ـــ بغريزة الأنثى وطبيعة الانسان ـــ أن المحب دائماً يرقب المحبوب ، يتبعه حيث يميل ، ينصت لحديثه ، ويصدقه وإن كذب ! ويوافقه وإن ظلم ، يتعمد القعود بقربه والتباطؤ في الشيء إذا أبعده عنه ... وقد أوجز جميل كل هذا حينما تمنى العمى والصمم على أن تقوده "بثينة" فيطول اللقاء ... وهذا كله إنما يستحسَن من المحب إن كان صادقاً عفيفاً ،

---

[٣٨] تراجم النساء لابن عساكر ص ١٦٤ .

" رحم الله صاحبك إن كان صادقاً ، وكان جميلاً كاسمه"! وهكذا تحث "سكينة" على الفضيلة وتشجع عليها بأساليب مختلفة من منطلق إنساني رفيع!

****

وقد روى صاحب الأغاني قولها لراوية نُصيب في قوله :

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمـــُتْ .. فوا حزناً من ذا يهيم بها بعدي !

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده كأنه يتمنى لها من يتعشقها بعده! قبّح الله صاحبك وقبح شعره، ألا قال:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت .. فلا صلحت دعدُ لذي خـــُلةٍ بعدي!

إنها دعوة كريمة ـــ من ناقدة جليلة ـــ للوفاء في الحب حتى بعد الممات !

وإن الوفاء في هذه الحالة لأجلُّ وأحسن منه في الحياة مع رجاء اللقاء! وأرى فى نقدها للبيت ملمحاً إنسانياً آخر: فالحب إنما يقوم على الذاتية والأنانية ، الأمر الذي لا يسوغ لمحبٍّ أن ينتقي بديلاً آخر يحلّ محلَّه.

****

وإن مما يؤكد بصر "سكينة" في نقد هذا البيت : هو أن ما عابته فيه على "نُصيب" قد عابه عليه آخرون من المعاصرين له ، كابن أبي ربيعة ـــ إمام شعراء الغزل في عصره ـــ كما عابه آخرون بحضرة "عبد الملك بن مروان" وكان عبد الملك ناقداً [٣٩].

ومما ورد من نقد عبد الملك لهذا البيت قوله : "والله لقد أساء قائل هذا البيت " ثم طلب إلى جلسائه أن يضعوا بديلاً لشطره الآخر على غرار ما صنعت "سكينة" مع نُصيب [٤٠]

وقد أردت أن أنبه إلى موهبة "سكينة" الشعرية التي أسعفتها في مثل هذا الموقف وسبقها إلى نقد البيت ، وهو ما يرجح ما ذهبت إليه في بداية حديثي عن أدب ونقد سكينة .

-١٠-

وسمعت "سكينة" قول الأحوص عن عاشقين تراسلا وتواصلا ليلاً حتى إذا لاح الصباح تفرقا حيث يقول:

باتا بأنعم ليلة وألذها .. حتى إذا وضح الصباح تفـــرَّقا

---

[٣٩] انظر الكامل للمبرد ج ١ م ٣٣٣.

[٤٠] الموشح للمرزبانى ص ٢٩٩ وعيون الأخبار ج ١٠ م ٤ ص ١٤٦ – ١٤٧ .

فقالت: وددت لو قال: " تعانقا" بدل " تفرقا" [٤١] .

ولعل هذا النوع من النقد كان قوامه تقدير المشاعر الإنسانية وتوافقها : فسكينة قدَّرت صدق الشاعر في تعبيره عن تجربته وواقعه ، لكنها ودت أن تثمر حركة العاشقين من التراسل والتواصل والتلاقي والتداني ثمرة إيجابية ... هي العناق لا أن ترتد الحركة إلى صدريهما سهام انفصال وفراق. ولكل من الشاعر والناقدة وجهته ووراء الوجهتين تقف الحاسة الأدبية تعد كلاً بالتقدير [٤٢].

-١١-

وركبت "سكينة " ذات ليلة في جواريها فمرت بعـــُروة بن أذينة [٤٣] فقالت : يا أبا عامر أنت تزعم أنك لم تعشق قط ! أنت القائل :

إذا وجدت أُوار الحب في كبدي أقبلتُ نحو سقاء الماء أبترد

---

[٤١] الأغانى جـــ ١٤ /١٧٥.

[٤٢] اتجاهات النقد الأدبى د. السعدى فرهود ص ١١٠ .

[٤٣] هو الإمام يحيى بن مالك الليثى الكنانى من الفقهاء والمتحدثين ، كان عالماً ناسكاً ، روى عن عبد الله بن عمر كما روى عنه الإمام مالك فى الموطأ وروى عنه عبيد الله بن عمر وهو من فحول الشعراء بالمدينة. عاصر أكثر الأمويين توفى حوالى١٣٠ هـــ (راجع شعر عروة بن أذينة د. يحيى جبور ص ١٣ وما بعدها)

هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنارٍ على الأحشاء تتـــــقَّـــد؟

فقال لها : نعم

فقالت : وأنت القائل :

قالت وأبثتـــُها سري فبحتُ به قد كنت عندي تحب الستر فاستتر

ألست تبصر من حولي ؟ فقلت لها غطى هواكِ وما ألقى على بصري؟

فقال : نعم

فالتفتت إلى جوارٍ كن حولها وقالت:" كل من ترى حولي من جواري أحرار إن كان خرج هذا الكلام من قلب سليم قط" ![٤٤]

لقد أدركت سكينة ـــ بمشاعرها الإنسانية ـــ ما في شعر عروة من نبض قلب جريح قد بـــــَراه الضنى ، وهو يدعي الكتمان ! فالمراد بقولها "إن كان هذا الشعر خرج من قلب سليم" أي سَـــلم من المعاناة" ، لكنه ادَّعى قوله على مذهب الشعراء أو قاله تقليداً ! ولعل الدافع من وراء كتمان "عروة " حبه هو مكانته الجليلة بين الفقهاء !

---

[٤٤] وفيات الأعيان جـــ ٢ / ٢٦٤ وأعلام النساء ج ٢٠٦/٢

فالفقيه العاشق أقرب إلى التصون غالباً من الأديب العاشق ؛ لأن له من فقهه الديني وإحساسه بمكانته في المجتمع ما يسمو به عن الريبة والظن [٤٥].

وسكينة حينما تدعوه لأن يكون واضحاً في عواطفه ، كأنها بذلك تتألم لحاله ! وإن هذا الأدب العالي والذوق الرفيع من مثل سكينة لا يستغرب . "لأن من اغتمس في بحر الهوى نمت عليه شواهد الضنى" فأما أهل الدعاوى الباطلة الذين ليست أجسامهم ولا ألوانهم بحائلة ولا عقولهم بذاهلة فهم عند ذوي الفراسة يكذَّبون وعند ذوي الظرف لصحتهم يوبَّخون" [٤٦]

****

وإلى جانب هذه الوقفات النقدية نلمح صورة العصر: حيث العبيد والجواري ، وحيث أسلوب التخاطب من نحو: "سيدتي ومولاتي.. "وهو ما يظهر لنا الفارق الاجتماعي حينذاك إلا أن سكينة الإنسان ـــــ وهي فرد ـــــ لا تستطع أن تقدّم نحوه

---

[٤٥] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير د. رجب البيومي ط/ القاهرة ص ١٥٧ .

[٤٦] الموشَّى للوشَّاء ص ٧٧

شيئاً إلا أن تلوِّح بالحرية حين تلوح الفرصة ، كما في قولها لعروة :" كل من ترى حولى من جواري أحرار ...

****

ونراها في كثير من النقدات تمزج العقيدة بالحب ـــــ والشيء من معدنه لا يستغرب ـــــــ وهذه اللفتة الإنسانية رأيناها في نقدها للفرزدق وجميل ، وكأن الحب في نظرها لا يقوم بغير دين يحفظه ويحميه ! نعم * **ولا دُنيا لمن لم يـُحي دينا** *

-١٢-

ونقرأ في الأغاني خبراً آخر له دلالته الإنسانية : حدث المدائني أن "سكينة" كانت ذات ليلة تسير فسمعت حادياً يحدو في الليل ، يقول :

* **لولا ثلاث هنَّ عيش الدهر** *

فقالت لقائد قطارها : ألحِق بنا هذا الرجل حتى نسمع منه ما هذه الثلاث ... ثم قالت لغلام لها : "سر أنت حتى تسمع عنه " فسار الغلام سريعاً ثم عاد إلى مولاته ، فقال لها: سمعته يقول :

* **الماء والنوم ، وأم عمرو** *

فقالت : قبَّحه الله ، أتعبني منذ الليلة [٤٧] "فسكينة "إنما أنكرت على الأعرابي أن يخلط بين حاجات الجسم العرضية ، وحاجة القلب والوجدان ، وأن تستوي عنده أم عمرو ، والماء والنوم ، بل تتأخر عنهما "! [٤٨] والتمييز بين حاجة الجسم والقلب إنما يعود إلى الذوق المتحضر الذي يراعي حق الأنثى ويقدر مشاعرها !

-١٣-

وقريب من هذا موقف سكينة من "كثيّر عزة" حين أنشدها قصيدته التي أولها:

أهاجكَ برقٌ آخرَ اللّيلِ واصبُ ... تضمّنَهُ فرشُ الحيا فالمساربُ

تألّقَ واحْمَوْمَى وخيِّمَ بالرُّبَـــى ... أحمُّ الذُّرى ذو هيدبٍ متراكبُ

إذا زعزعته الرِّيحُ أرزمَ جانبٌ ... بلا خلف منـــــــهُ وأومضَ جانب

وهبت لسُعدى مـــاءه ونباته .... كما كل ذي ود لمن ودّ واهب

لتُروي به سُعدى ويُروي صديقها.... ويُغدق أعـــــداد لها ومشارُب

---

[٤٧] الأغانى ج ١٤ / ١٧٣

[٤٨] د. بنت الشاطئ م ١٨١

فقالت : أهب لها غيثاً عاماً جعلك الله والناس فيه أسوة ؟ فقال : يا بنت رسول الله ﷺ وصفتُ غيثاً فأحسنتُه وأمطرتُه وأنبته وأكملته ، ثم وهبته لها ، فقالت : فهلا وهبت لها دنانير ودراهم ؟ (٤٩)

وربما يفهم لأول وهلة من قول سكينة : أنها أرادت التعبير عن الحب بالجانب المادي (الدنانير والدراهم) كلا ! وإنما عابت عليه ـــ كما عابت على الأعرابي السابق ـــ عدم تقديره لمشاعر الأنثى. فإعطاؤه –هنا– هو إعطاء من لا يملك شيئاً تساوت فيه الخلائق ، ولا يملك هو قسمته بينها ، ولا ردّه عنها ! فجاء التعبير عن العاطفة فاتراً– من وجهة نظري ـــــــ

وانطلاقاً من هذا التعبير الفاتر الذي لا يتناغم وعاطفة الحب الصادق جاء نقدها " لكثير عزة" أيضاً حين سمعت قوله :

وما روضةٌ بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارُها

بأطيب من أردان عزة موهناً وقد أُوقدت بالمندل الرطب نارُها

---

(٤٩) الموشح للمرزبانى تحقيق البجاوى ص ٢٤٦ ، وأعلام النساء ج٢ /٢٠٦ ـــ ٢٠٧

قالت : ويحك ! وهل على الأرض زنجية منتنة الإبطين توقد بالمندل الرطب نارها إلا طاب ريحها! ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس:

ألم تريابي كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب [٥٠]

وقد عرض د. السعدي فرهود لنقد"سكينة" لهذا البيت ، فقال : وهذه من أمثلة النقد القائم على الموازنة : فأنت ترى "سكينة بنت الحسين" تعتمد على خبرتها الأنثوية في تفضيل امرئ القيس الذي وجد الطيب طبيعة في صاحبته فلا تحتاج إلى التطيّب . أما كثيّر فقد عِيب قوله ؛ لأنه اجتلب لصاحبته طيباً تتطيب به . وقال أبو هلال العسكري : إن قول كثير من المعاني التي لا تبلغ مبلغ الإحسان ؛ لأن كل من تجمر بالعود طابت رائحته . فضلاً عن أن العود الرطب ليس بمختار للبخور وإنما يصلح للمضغ وللسواك [٥١] .

ولعلي أتلمس المقصود إذن بطيب الرائحة التي أرادها سكينة ـــــ في محبوبة كثير أو غيرها ـــــ أنها الرائحة الذاتية ، وما تعنيه من جمال طبعي تكون عليه الأنثى ،

---

[٥٠] العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ج ٥ م ٣٧٣ .

[٥١] اتجاهات النقد الأدبى ص ١٧٣ .

ولعل سكينة قد سبقت ـــ بتلك اللفتة الإنسانية ـــ إلى نبذ المساحيق المصطنعة التي تحاول بها المرأة العصرية تغيير ما فطرها الله عليه.

****

ونعود إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن "سكينة " قد شهدت من المآسي والأرزاء ما طفحت به الكأس مرارةً وشجناَ منذ تفتحت عيناها على الحياة (فقد قُتل جدها " علي" وأبوها "الحسين" وزوجها "مصعب "، فتيتمت صغيرة ، وترملت كبيرة ، وصارت إلى عداء مع الأسرة الأموية الحاكمة) وبرغم ذلك كله ظلَّت كما كانت مبعث أنس لمن تبقَّى من أهلها ولمن حولها بما فطرت عليه من ظرف السجايا ولطف الدعابة . وإن الإنسانية لتدفعها لأن تضمِّد جراحها وتخفي آلامها لتقبل على الناس بوجـــــــــــــــهٍ مبتسم ، ونفس متفتحة للحياة ، مستهينة بأمر الدنيا التي لم تعد تساوي – في نظرها- دمعةً تسكب ولا هي جديرة بأن يؤسف عليها !

وإن ما فُطرت عليه من أنس وظَرف وما شَهِدته من مآسٍ وأرزاء كان له الأثر الكبير في تكوين شخصيتها. فضلاً عن تأسِّيها الواضح بجدها المصطفى ، وهو رسول الإنسانية جمعاء.

هذه الأسباب ـــــ مجتمعة ـــــ كانت من وراء منحاها الإنساني الذي تبلور في موقفها من أحداث مجتمعها ، كما تبلور في دورها الرائد في نقد الشعراء وتشجيعهم بالمال والكلمة ، وكأن روح أبيها وجدها قد انضافتا إلى روحها ، فجمعت بين سخاء الكف ، وثروة العلم وحب الإنسانية بكل معانيها !

-١٤-

ولعلنا نتساءل : لماذا اقتصرت نقدات سكينة علي شعر الحب ؟ وماذا يعني إذن ؟

إن الشريفة الهاشمية الحسناء قد عاشت في مجتمع شاع فيه الحديث عن الحب ، وكان شيئاً عاماً التقى فيه عالم الدين ورجل السياسة مع الشعراء ، وأقبل الجميع على شعر الغزل يتغنون به ، وحينما اختلف الشعراء ورواتهم على أيِّهم أشعر؟ وقصدوا "سكينة" للفصل بينهم ـــ ما أنشدها شاعرٌ غيرَ شعر الغزل! وكأنَّ نقداتها ـــ حينئذ ـــ كانت موجهة إلى ذوق العصر كله ممثلاً في تلك النخبة من الشعراء . إذ أن الحب ـــ بمعناه الواسع ـــ هو المظهر الحضاري لمعاني الإنسانية كلها !

ولعل إعراضها عن شعر المديح ـــــ على كثرته ـــــ كان إعراضاً عما يشوب معظمَه من التملق والنفاق .. وتلك لفتة أخرى ؛ ولذلك (لم نرها فيمن نقدت أشعارهم أنها عرضت لبيتٍ من مدائحه أو ناقشته فيه، بل كان اهتمامها بما قالوه في الحب. وكأنها

كانت ترى فيه ما لا ترى في المديح من نبض القلب بل تَعــُده المقياس الدقيق لامتحان أصالة الشاعرية ، وصدق المعاناة) [٥٢]

****

ولا يتوقف منحاها الإنساني عند حد التشجيع على هذا الشعر ـــ بنقده والعطاء عليه ـــ بل يمتدّ للتغني فيه ، وكأنها أرادت أن تلبي حاجة الفنيين من أبناء المدينة ، وليس عليها من جناح في تلك التسليات البريئة ، وهي على تلك المكانة من رجاحة العقل ؛ ولهذا لم ير أحد من أهلها في ذلك بأساً و لم يعبها من المؤرخين عائب !!

****

ونلاحظ فيما مرَّ من نقدات سكينة أنها كانت جزئية لا تتعدى البيت أو البيتين، إلا أن قيمة هذه النقدات الجزئية إنما تكمن في غوصها في أعماق النفس الإنسانية فكانت دافعاً إلى السمو الفكري والرقي العاطفي...

حقاً : **لعمرك إنني لأحبُّ دارا تكون بها "سكينةُ" و "الربابُ"**

---

[٥٢] راجع د. بنت الشاطئ ١٨٤.

الخلاصة وأهم النتائج

ـــــ شهد النقد النسائي جهداً ملحوظا في الأدب العربي منذ الجاهلية وإن لم يعرف باسم النقد والملاحظ أن نقد المرأة غالباً ما يوجه للرجل ! وعلى كل ٍ كان دوراً إيجابياً متمماً لعمل الأديب ، وإسهاماً في الحكم على الأثر الفني وبياناً لقيمته .

ـــــ لقد استأثر المضمون الإنساني عند" سكينة " بنصيب الأسد فشمل العاطفة وأخلاق المرأة العربية ، كما اتسم نقدها بالذاتية المعتمد على ذوقها الفطري ، وذوق عصرها وثقافته ، وربما اعتمد جانب منه على باب الاستحسان ؛ لما فيه من قيم الوفاء وصدق المعاناة ونبل الأماني وكتمان الهوى ، كما في استحسانها لنماذج من شعر جرير وجميل.

ـــــ كان الاهتمام بنقد الجزئيات سمةً من سمات النقد العربي القديم ، وظاهرةً من مظاهر النقد النسائي عامة وعند سكينة خاصة ، الأمر الذي يؤكد انسجام أدبها ونقدها مع أدب الحجاز ونقده حينذاك .

ـــــ يكاد ينحصر نقد سكينة في جانب واحد من العمل الإبداعي، وكذلك اقتصرت نظراتها على أبيات أو مقاطع معدودة

لدى الشاعر، دون أن ترتقيَ نظرتها لتشمل إنتاجه كله أو قصيدة بأكملها .

ـــــ كاد نقد سكينة يقتصر على الشعر الذي يجعل المرأة موضوعاً له كالمدح والرثاء وكذا الغزل الذي كان له النصيب الأوفى من نقدها. الأمر الذي أثار شغف الباحثين ، لمعرفة السبب الكامن وراء عنايتها بالغزل، وقد عزوتُ اهتمامها به إلى انسجامها مع طبيعة البيئة الحجازية حينذاك.

ـــــ ولعلنا ننحاز إلي رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن حين رأت أن سكينة إنما حازت مقاليد الحكم الأدبي لعلو كعبها في فن القول ، وحساسيتها المرهفة في ذوق الشعر وبصرها بمواطن التأثير وأسرار البلاغة والبيان ، وليس لتفردها بالحسن والجمال والشرف – كما زعم آخرون– وإلا لشاركتها في ذلك أختها فاطمة وبنات عمِّها "الحَسن" ﷺ حفيدات الزهراء وسليلات النبوة.

ـــــ وأخيراً ، فالتأمل في نقد سكينة يقدم الدليل الدامغ على أهلية المرأة العربية للنقد وأن الإسلام لم يكن عائقاً أمام تكوينها الثقافي والنقدي، بل كان رافداً لبناء ذوقها الأدبي والنقدي ، وترى المرأة

العربية الناقدة جذورها متمددة في أعماق التاريخ والإسلام والحضارة الإنسانية .

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

ثبت بأهم المراجع

ـــ اتجاهات النقد الأدبى العربى د . محمد السعدي فرهود ط/ دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٧٠م

ـــ الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير د. رجب البيومى جامعة الإمام محمد بن سعود ط/١٤٠٠هـــــــــــ ـــــــــــ ١٩٨٠م.

ـــ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام عمر كحالة ج/١،٢،٤ ط/ مؤسسة الرسالة بيروت

ـــــ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج/ ١١، ١٤ط/ محمد أفندي الساسي ١٣٢٣هـــ

ـــــ تراجم النساء لابن عساكر تحقيق سكينة الشهابي ط١/دار الفكر ـــ دمشق١٩٨٢م

ـــــ الحياة العاطفية د. غنيمي هلال ط القاهرة

ـــ ديوان جرير ط/ دار صادر بيروت

ـــــ ديوان الفرزدق ط / دار صادر بيروت

ـــ سكينة بنت الحسين د . بنت الشاطئ ط/ دار الكتاب العربي بيروت لبنان

ـــــ الكامل في التاريخ لابن الأثير جـــ١، ٤ / ط بيروت ١٩٦٥.

ـــــ مجلة الرسالة عدد ٦٦٥ فى١٣٦٥/٤/٢٨هـــ ـــ ١٩٤٦/١/١م بقلم الشيخ على الطنطاوى .

ـــــ مصارع العشاق لابن الحسين السراج ج١/ ط ١ مصر

ـ الموشح للمرزباني تحقيق البجاوي ط/دار الفكر العربي القاهرة